

القوة الحربية لمصر والشام

في عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

- ٣ -



وكان للجيش ديوان يشرف عليه من الناحية الإدارية والمالية . وكان الجندي في ذلك الحين موسماً عليه في الرزق ، بل كان الخبز يقدق عليه أحياناً من ناحية التناضين على تولى زمام السلطان ، فعندما وزر شاوور مثلاً زاد الأجناد على ما كان لهم عشر مرات (١) وفي العصر الفاطمي كان الجنود يتفاوضون مرتباتهم نقوداً ، ويظهر أنهم ما كانوا يأخذون مرتباتهم شهرياً ، وإنما كان يعطى لهم في العام مرة ، وأن هذه المرتبات تبلغ ثلث خراج الدولة ، يفهم ذلك من قول القرظي في خططه (٢٠٠ ص ٢٤٩) : وكانت المادة إذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر نذب من الجند من فيه حاسة وشدة ، ومن الكتاب المدول ، وكاتب نصراني ، فيخرجون إلى سائر الأعمال لاستخراج ثلث الخراج على ما تشهد به السجلات المذكورة ، فينفق في الأجناد ، فإنه لم يكن حينئذ للأجناد إقطاعات .

ولكن نور الدين محموداً بالشام فضل أن يعطى جنده إقطاعات يتلون منها أجورهم . وكان الجندي إذا مات أعطى إقطاعة لولده فإن كان صغيراً رتب معه من يلى أمره حتى يكبر ، فكان أجناده يقولون : الإقطاعات أملاكنا ، يرثها أولادنا الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها (٢) ؛ وسارت الدولة الأيوبية والحربية على هذا النظام فكانت تمنح الأمير وأجناده الإقطاع ، على أن يكون للأمير الثلث ولأجناده الثلثان ، فلا يمكن الأمير ولا مباشروه أن يشاركوا أحداً من الأجناد فيما يخصهم إلا برضام . وكان الأمير لا يخرج أحداً من أجناده حتى يتبين لثائب موجب يقتضى إخراجهم . حينئذ يخرج نائب السلطان ، ويقم عند الأمير عونه

(١) النجوم الزاهرة - ص ٥٠٠ ص ٢٢٨ .

(٢) خطط القرظي - ص ٢٠١ ص ٢٥١ .

وكانت إقطاعات جند الأسماء على ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص ، ومن مات من الأسماء والجند قبل استكمال مدة الخدمة حوسب ورنته على حكم الاستحقاق ، فإنا أن يجمع منهم ، وإنا أن يطلق لهم على قدر حصول النيابة بهم . وإقطاعات الأسماء والجند ، منها ما هو بلاد يستقلها مقطوعاً كيف شاء ، ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها . وكان لجميع الأسماء على السلطان الرواتب الجارية في كل يوم من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير للخيول والزيت ؛ ولبعضهم الشمع والسكر والسكرية في كل سنة ، وكذلك لجميع ممالك السلطان وذوي الوظائف من الجند . واسكل أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى في شهر رمضان ، واسائرهم الأئمة في عيد الأضحى على مقادير رتبهم ، وكانت الخيول السلطانية تفرق على الأسماء مرتين في كل سنة (١) .

وفي الحملات الحربية الكبرى كان بعض السلاطين يلجأ إلى فرض ضرائب جديدة على الشعب المصري كما حدث في عهد قطز فإنه عند ما أزمع حرب التتار أخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى ديناراً واحداً ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال وأخذ على التيطان والسواق أجرة شهر ، فبلغ جملة ما جمعه من الأموال في هذه الحركة ستمائة ألف دينار . وبهذه الأموال جند جيشاً هزم التتار لأول مرة في تاريخ حياة التتار .

والقارىء لوصف المجلس الاستشاري الذي عقده قطز من عليه القوم لفرض ضرائب جديدة للجيش يرى ما كان عليه هذا الجيش من سعة في الحياة . والحق أن سلاطين ذلك الحين لم يفتنوا على جيوشهم ، ولدهم بأنهم الساعد والمضد في الدفاع عن أرض الوطن . ولم يكن الجند يخرجون إلى قتال إلا وهم مضمرون بالرزق والبطء . أنفق الأشرف خليل ابن قلاوون في سنى حكمه الثلاث ثلاث نفقات : الأولى في أول جلوسه في السلطنة ، والثانية عند توجهه إلى عكا ، والثالثة عند توجهه إلى قلعة الروم .

(١) المرجع السابق ص ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢ .

المال ، فإذا نهبا الإغناق أدخل الغزاة مائة سائفة ، وتكون أسماؤم قد رتبت في أوراق لاستعدادهم بين يدي الخليفة ، فيستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق واحداً واحداً ، فإذا كل عددهم عشرة وزن الزنانون لهم : لسكل واحد خمسة دنانير ، ويستمر ذلك مدة أيام متوالية مرة ومترفة مرة ، فإذا تكاملت النفقة وتهيأت السفن للسفر خرج الخليفة والوزير إلى ساحة النيل بالنس خارج القاهرة ، وكان هناك منظره يجلس فيها الخليفة لوداع الأسطول واقامه إذا عاد ، فإذا جلس للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر إلى هناك ، لتقيام مناورة بين يدي الخليفة ، وهي مستكملة عددها وأسلحتها وما فيها من التجهيزات ، فيرى بها ، وتحدث المراكب وتقلع ، وتقل سائر ما فضل عند لقاء العدو ، ثم يحضر المقدم والرئيس بين يدي الخليفة فيودعها ويدعو للجعبة بالنصر والسلامة. ويعلق المقدم مائة دينار والرئيس عشرين ديناراً. وينحدر الأسطول إلى دمياط ، ومن هناك يخرج إلى البحر الأبيض للفرز والجهاد ؛ فإذا أدى واجبه عاد وخرج الخليفة أيضاً للقائه^(١) . ومن ذلك يبدو مقدار اهتمام الخليفة بالقوة البحرية ومدى عنايته بأسرها . وكانت المادة أن ما غنمه الأسطول من المال والثياب ونحوها يكون لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد وليس لتخليفة سوى الأسرى والسلاح .

ولم يزل أمر الأسطول منبأ به طول عصر الدولة الفاطمية ، وإن كانت عدد سفنه قد قلت في عهد الحروب الصليبية ، ولكنها لم تنقص عن نحو مائة قطعة في آخر عهد الدولة الفاطمية . فلما دخل الفرنج أرض مصر في عهد شاور خان أن يقع الأسطول الفاطمي في يد ملكهم صهي ، فأحرق جزءاً كبيراً منه ، ونهبه المبيد فيها نهبوا^(٢) ، وهكذا فقدت مصر جزءاً كبيراً من قوتها البحرية بسبب هذا المراك القديم على السيطرة والسلطان بين وزراء ذلك الزمان .

فلما جاء صلاح الدين رأى واجباً عليه لكي يتم رسالته أن يعين بأسر الأسطول بحارب به أساطيل الصليبية ؛ فف سنة ٥٧٢ وهو مقيم بالإسكندرية رأى الأسطول وقد أخلفت سفنه ،

وكما عني الفاطميون بإنشاء جيش برى ليجب يحفظ ملكهم ، ويصون إمبراطوريتهم ، لم ينفلوا عن أن يلازم - ولها شواطي - مترامية الأطراف على بحر من عظيمين الأبيض والأحمر - محتاج إلى أسطول ضخم يصون الحمى ويحمى الدمار ، فأنشأ المزلدين الله قوة بحرية مكونة من أكثر من ستمائة قطعة^(١) ، وقد أعانت تلك القوة وأعانت خلفاءه على تثبيت سلطانهم وحفظ هيبتهم . ولكي ينال الأسطول ما يستحقه من الرعاية أنشأت الدولة له ديواناً خاصاً^(٢) يقال له ديوان البحار ، يعنى به من الناحية الإدارية والمالية .

وزاد عدد جنده على خمسة آلاف مقاتل^(٣) ، لهم عشرة قواد يعين منهم واحد رئيس الأسطول ، فإذا ساروا إلى التزواك هو الذي يطلع بهم ، وبه يقتدى الجميع ، فيرسون بإرساله ويقلدون بإقلاعه . وعلى الأسطول مقدم يكون أميراً كبيراً من أميان أمراء الدولة وأقوام نفساً ، وللجند عشرون عربقاً يسمون الثقباء هم الذين يفرقونهم ويجمعونهم إذا كان غزو .

ولقواد الأسطول مرتبات يصل أعلاها إلى عشرين ديناراً في الشهر ، وبعضهم يأخذ خمسة عشر ديناراً ، أو عشرة دنانير أو ثمانية أو دينارين ، وذلك أقل مرتباتهم^(٤) . وللجند الأجور والجرديات مدة سفرهم لكل واحد خمسة دنانير ، أما بعد عودتهم فإنهم يتلون رزقهم بكدم ، ويكونون على استعداد للفرز إذا طلبهم الشريف له .

وتنفق الدولة على الأسطول من إنطاعات خصصت به تصرف بأبواب الغزاة وفيها ما يرد إلى الخزانة من ثمن التطرون الذي احتكرته الحكومة .

فإذا أراد الأسطول الفرز جمع الثقباء له الرجال من غير أن يكرهوا أحداً على السفر ، ثم يعين الخليفة يوماً للنفقة يجلس فيه ومعه الوزير ، كما يحضر صاحب ديوان الجيش ومها المستوفى والكاتب . وللجلس أنطاع تصب عليها الدرهم ويحضر لذلك الزنانون لبيت

(١) خطط القرظي - ٣ - ص ٢١٣

(٢) الإسلام والمشاركة البرية لكردي على - ٢ - ص ٣٨٤

(٣) سيج الأعمى - ٣ - ص ٥١٩

(٤) خطط القرظي - ٣ - ص ٢١٣

(١) الرجح السابق

(٢) خطط القرظي - ٣ - ص ٢١٣

ونقيرت آلاته فأمر بتميره ، وجمع له من الأخشاب شيئاً كثيراً ومن الصناعات عدداً جماً ، حتى إذا تم صنع المراكب أمر بجعل إليها ما هي في حاجة إليه من السلاح والعدد وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وخصص له إقطاعاً خاصاً (١) ، وموارد ثابتة يجي منها مقدار ضخم ينفق عليه (٢) ، وزاد في دبنار الأسطول ، لجملة يساوي نصف دبنار وربعه بعد أن كان يساوي نصف دبنار وتمنه (٣) ، وأورد للأسطول ديواناً خاصاً سلمه إلى أخيه الملك المادل (٤) ، وأعطى صلاح الدين صاحب الأسطول سلطة كبرى في تخير رجاله وإعداد سلاحه ، فكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول وألا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه . واشتهر من قواد البحر في عهد صلاح الدين القائد العظيم لؤي (٥) . وبلغت عدة الأسطول سنة ٥٧٥ ستين شيئاً وعشرين طريدة (٦) ، ولا بد أن يكون عدد قطع الأسطول قد زل بعدئذ ، فإن صلاح الدين ما كانت يفتن على هذه القوة البحرية بتال .

واستمرت العناية بأمر الأسطول قليلاً بعد وفاة صلاح الدين . ثم قل الاهتمام به وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه ، فإذا دعت الضرورة طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات وقيدوا في السلاسل نهاراً ، وسجنوا في الليل حتى لا يهربوا ، ولا يمتطون إلا قليلاً من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بشيرش . كما يفعل الأسرى من العدو ، فصارت خدمة الأسطول تاراً يسببه الرجال ، وإذا قيل لرجل في مصر بأستطول غضب غضباً شديداً بعد أن كان خدام الأسطول يقال لهم المهادون في سبيل الله والنزاة لأعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم (٧) .

ثم عادت العناية بأمره في عهد الصالح أيوب ، وكان له أكبر الأثر في معركة المنصورة (٨) كما رأينا ، وأهمل أمره بعد ذلك حتى أيام بيبرس فاستدعى رجال الأسطول وأمر بصنع السفن

(١) خطط القرظي - ٣ من ٣١٥

(٢) السلوك - ١ من ٦٠١

(٣) للرجع السابق ص ٤٤٧

(٤) خطط القرظي - ٣ من ٣١٥

(٥) السلوك - ١ من ٤٥٠

(٦) السلوك - ١ من ٤٥٧

(٧) الرجح السابق ص ٧٤٩

(١) الروضين - ١ من ٦٩

(٢) خطط القرظي - ٣ من ٢١٠ و ٣١٥

(٣) السلوك - ١ من ٤٥ (٤) خطط القرظي - ٣ من ١٣٥

(٥) السلوك - ١ من ٦٩ (٦) الروضين - ٢ من ١١

(٧) خطط القرظي - ٣ من ٣١٥

(٨) السلوك - ١ من ٢٥٣